موقع فلسطين
www.falasteen.com

نشرنا لكتاب السيد شاحاك لا يعنى أننا نؤيد ما يطرحه فى كتابه

مقدمة

كُتب الكثير من الكلام الفارغ في محاولة لتقديم تفسير اجتماعي أو صوفي لليهود أو لليهودية "ككل". وهذا أمر غير ممكن، لأن البنية الاجتماعية للشعب اليهودي والبنية الأيديولوجية لليهودية، تغيرت تغيراً عميقاً عبر العصور. وبإمكاننا أن نميّز أربع مراحل رئيسية.

1- مرحلة الممالك القديمة، مملكة إسرائيل ومملكة يهودا، حتى تدمير الهيكل الأول (في عام 587 ق.م.). والمنفى البابلي (ويُعنى حيّز كبير من العهد القديم بهذه الفترة، على الرغم من أن معظم كتب العهد القديم الرئيسية، بما فيها الأسفار الخمسة في العهد القديم كما نعرفها، جرى تأليفها في الواقع، بعد هذا التاريخ).

لقد كانت هذه الممالك اليهودية القديمة، على الصعيد الاجتماعي، مشابهة تماماً لمملكتى فلسطين وسوريا المجاورتين. وهذا الشبه – الذي يتكشّف لدى القراءة الدقيقة للأنبياء – يمتد ليشمل الديانات التي مارستها الأكثرية الساحقة من الناس (1). والأفكار التي كان لها أن تصبح أفكاراً نموذجية لليهودية اللاحقة – بما فيها على وجه الخصوص، التمييز الاثني والحصرية التوحيدية – كانت في هذه المرحلة، أفكاراً محصورة بدوائر صغيرة من الكهنة والأنبياء الذين اعتمد نفوذهم الاجتماعي على الدعم الملكي.

2- مرحلة ازدواج المراكز، فلسطين وبلاد ما بين النهرين، ابتداء من "العودة الأولى من بابل" (عام 537 ق.م.)، وحتى حوالي العام 500م. وقد تميّزت هذه المرحلة بوجود هذين المجتمعين اليهوديين المتمتعين بالحكم الذاتي، والقائمين أساساً على الزراعة. واللذين فرضت عليهما قوة الامبراطورية الفارسية وسلطانها، "الديانة اليهودية"، كما شرحتها سابقاً، ألدوائر الكهنوتية ودوائر الكَتَبَة. فسفر

عزرا في العهد القديم يشمل سرداً لنشاطات عزرا الكاهن، وهو "كاتب فوري لشريعة موسى"، الذي خوّله ملك فارس، ارتحشستا الأول، صلاحية "تعيين قضاءة وقضاة صلح"، على يهود فلسطين، حتى إذا حصل "ولم يأتمر أحدهم بقانون الرب إلهكم، وبقانون الملك، يُنفّذ فيه الحكم بسرعة، سواء أكان حكماً بالموت أم بالنفي أم بمصادرة البضائع، أم بالسجن" (2). ومن خلال سفر نحاميا، ساقي الملك ارتحشستا، الذي عُيّن حاكماً فارسياً ليهودا ويتمتع حتى بسلطات أكبر، يتبين لنا الى أي حد كان دور الإكراه الأجنبى، (ويقال في يومنا هذا الإكراه "الامبريالي")، دوراً فعالاً في فرض الديانة اليهودية، وبنتائج دائمة.

لقد استمر الحكم الذاتي اليهودي في هذين المركزين خلال معظم هذه الفترة، وكانت تُقمع أي انحرافات عن الارثوذوكسية الدينية. ولم يكن يحصل شذوذ عن هذه القاعدة إلا عندما كانت الارستقراطية الدينية نفسها "تُصاب بعدوى" الأفكار الاغريقية (من عام 300 الى 166 ق.م. وأيضاً، تحت حكم هيرودوتس الكبير وخلفائه من عام 50 ق.م. الى عام 70م)، أو عندما كانت هذه الارستقراطية الدينية تنقسم في ردة فعل على تطورات جديدة (مثل الانقسام بين الفريقين الكبيرين، الفريسيين والصدّوقيين، الذي برز في حوالي العام 140 ق.م.). ولكن في اللحظة التي كان ينتصر فيها أي من الفريقين، كان المنتصر يستخدم الآلية القمعية للحكم الذاتي اليهودي (أو الاستقلال، لفترة قصيرة) لفرض وجهات نظره الدينية على اليهود في كلا المركزين.

وخلال معظم هذا الوقت، وخصوصاً بعد انهيار الامبراطورية الفارسية وحتى حوالي العام 200م. كان اليهود القاطنون خارج هذين المركزين، أحراراً من الإكراه الدينى اليهودي. ويوجد من بين أوراق البُردى المحفوظة فى اليفانتين Elephantine (في مصر العليا)، كتاب يعود تاريخه الى عام 419 ق.م. يحتوي على نص لأمر صادر عن ملك فارس، داريوس الثانى، ويتضمن تعليمات ليهود مصر بالنسبة الى تفاصيل التقيد بفرائض عيد الفصح. (3)

ولكن الممالك الهيللينة والجمهورية الرومانية والامبراطورية القديمة، لم تكن تُعير أي اهتمام لهذه الأمور. ولقد أتاحت الحرية التي كان يتمتع بها اليهود الهيللينيون خارج فلسطين، إبداع أدب يهودي مكتوب باليونانية، ما لبثت اليهودية أن رفضته بمجمله فيما بعد، وقد حفظت المسيحية بقاياه (4). كما كان نشوء المسيحية بحد ذاته، ممكناً بسبب هذه الحرية النسبية في المجتمعات اليهودية خارج هذين المركزين. وقد كانت تجربة بولس الرسول ذات مغزى: ففي كورنث، عندما اتهمت الطائفة اليهودية المحلية بولس بالهرطقة، رد غاليو، الحاكم الرومانى، القضية على الفور، ورفض أن يكون "حكماً في أمور من هذا النوع" (5)، ولكن الحاكم فستوس،

في يهودا، شعر بأنه مُلزم بالاهتمام القانوني بهذا الجدل اليهودي الداخلي الديني الصرف. (6)

ولكن هذا التسامح لاقى نهايته في حوالي العام 200م، عندما أقدمت السلطات الرومانية، في هذه الأثناء، على فرض الديانة اليهودية على اليهود كافة في الامبراطورية، وبحسب ما كانت هذه الديانة قد تطورت وشرحت في فلسطين. (7)

3- المرحلة التي عرّفناها كمرحلة اليهودية الكلاسيكية، والتي سنبحث فيها أدناه (8).

4- المرحلة الحديثة التي تميزت بانهاير المجتمع الاستبدادي اليهودية وسلطته، وبمحاولات إعادة فرضه، والصهيونية هنا، هي أهم هذه المحاولات. فهذه المرحلة تبدأ فى هولندا فى القرن السابع عشر، وفي فرنسا والنمسا (باستثناء المجر) في أواخر القرن الثامن عشر، وفى معظم البلدان الأوروبية الأخرى، فى أواسط القرن التاسع عشر، وفي بعض البلدان الإسلامية في القرن العشرين. (وكان يهود اليمن في عام 1948، ما زالوا يعيشون في مرحلة القرون الوسطى "الكلاسيكية"). وسوف نقول شيئاً عن هذه التطورات فيما بعد.

وهناك فجوة تُقاس ببضعة قرون، بين المرحلة الثانية والمرحلة الثالثة، وهي مرحلة اليهودية الكلاسيكية. ومعرفتنا اليوم، باليهود والمجتمع اليهودي خلال هذه الفجوة، معرفة طفيفة جداً، أما المعلومات الشحيحة التي نملكها فهي معلومات مستقاة من مصادر خارجية (غير اليهودية). وحتى أواسط القرن العاشر لا نجد إطلاقاً فى بلدان العالم المسيحى اللاتينى، أي سجلات أدبية يهودية، على الإطلاق ولكن المعلومات عن الأحوال الداخلية لليهود، ومعظمها من الأدب الديني، لم تصبح أكثر وفرة، إلا في القرن الحادي عشر، وخصوصاً في القرن الثاني عشر. أما قبل ذلك، فقد كنا نعتمد اعتماداً كلياً، على الشهادات الرومانية أولاً، ثم على الشهادات المسيحية. ولم تكن الفجوة في المعلومات بهذا الاتساع في البلدان الإسلامية؛ ومع ذلك، لم نعرف عن المجتمع اليهودي قبل العام 800م. وعن التغييرات التي لا بد من أن يكون قد مرّ بها خلال القرون الثلاثة السابقة، إلا النزر اليسير.

السمات الرئيسية لليهودية الكلاسيكية

دعونا نتجاهل إذن، لمصلحة غرضنا هنا، "عصور الظلمات"، ونبدأ بالقرنين بين العام 1000 والعام 1200، اللذين تتوافر فيهما معلومات كثيرة من مصادر داخلية وخارجية على السواء، عن المراكز اليهودية المهمة كافة، في

الشرق كما في الغرب. فاليهودية الكلاسيكية، التي يمكن تمييزها بوضوح في هذه الفترة، مرت منذ ذلك الوقت، بتغييرات قليلة جداً، وما زالت قوة لها سلطانها حتى يومنا هذا (تحت قناع اليهودية الأرثوذوكسية).

فكيف يمكننا أن نصوّر خصائص هذه اليهودية الكلاسيكية، وما هي الفروقات الاجتماعية التي تميزها عن المراحل المبكرة لليهودية؟ في اعتقادي، أنه يوجد ثلاث سمات رئيسية من هذا النوع.

1- لم يكن هناك فلاحون في المجتمع اليهودي الكلاسيكي، وهو في ذلك يختلف اختلافاً عميقاً، عن المجتمعات اليهودية القديمة في مركزي فلسطين وبلاد ما بين النهرين. ومن الصعب علينا في أزمتنا الحديثة، أن نفهم ماذا يعني ذلك. وعلينا أن نبذل جهداً لنتخيّل ماهية نظام القنانة آنذاك، والفارق الكبير في معرفة القراءة والكتابة، ناهيك عن الثقافة، بين القرية والمدينة، طوال هذه الفترة، والحرية الأكبر بما لا يُقاس، التي كانت تتمتع بها الأقلية الصغيرة بمجملها، والتي لم تكن أقلية فلاحية – حتى ندرك بأن اليهود خلال الفترة الكلاسيكية بكاملها، كانوا يشكلون جزءاً لا يتجزأ من الطبقات صاحبة الامتيازات، على الرغم من كل الاضطهاد الذي كانوا يخضعون له. فالتأريخ اليهودي، ولا سيما التأريخ المدوّن باللغة الإنكليزية، تأريخ مضلل حول هذه النقطة نظراً لميله الى التركيز على الفقر اليهودي والتمييز المناهض لليهود. ولقد كان ذلك الفقر وذلك التمييز حقيقيين تماماً في بعض الفترات، إلا أن أفقر اليهود من حرفيين وباعة متجولين وخدم لملاكي الأراضي، أو صغار الكتبة، كانوا أفضل حالاً بما لا يقاس، من أحوال عبيد الأرض. وكان هذا صحيحاً بصفة خاصة، في البلدان الأوروبية حيث استمر نظام القنانة حتى القرن التاسع عشر، أن بشكل جزئي أم بشكل متطرف: أي في بروسيا والنمسا (بما فيها المجر)، وبولندا والأراضي البولندية التي استولت عليها روسيا. وهناك مغزى في حقيقة أن غالبية ساحقة من اليهود كانت، وقبل بداية الهجرة اليهودية الكبيرة في الأزمنة الحديثة (حوالي 1880)، تعيش في هذه المناطق، وإن وظيفتهم الاجتماعية الأهم هناك، كانت همزة الوصل، أو الواسطة لقمع الفلاحين باسم النبلاء والتاج.

لقد كانت اليهودية الكلاسيكية في كل مكان، تنمي الكراهية والازدراء للزراعة كمهنة، وللفلاحين كطبقة، بشكل يفوق حتى ما تنمّيه من كراهية وازدراء للأغيار – وهي كراهية لا أعرف ما يضاهيها في المجتمعات الأخرى.

وتظهر هذه الحقيقة فوراً، لأي شخص ملمّ بأدب القرنين التاسع عشر والعشرين، باللغتين، العبرية واليديش. (9)

وإن معظم الاشتراكيين اليهود في أوروبا الشرقية (أي أعضاء الأحزاب والجماعات الحزبية المنشقة، اليهودية حصراً، أو اليهودية في غالبيتها الساحقة) هم مذنبون بامتناعهم عن الإشارة في أي وقت، الى هذه الحقيقة؛ بل إن الكثير منهم، كانوا، بأنفسهم، موصومين بموقفهم المعادي للفلاحين معاداة شرسة، والموروث عن اليهودية الكلاسيكية. وكان الاشتراكيون الصهيونيون بالطبع، هم الأسوأ على هذا الصعيد، إلا أن غيرهم، مثل يهود البوند، (Bund)، لم يكونوا أفضل منهم بكثير ومن الأمثلة النموذجية على ذلك، معارضتهم لتشكيل التعاونيات الفلاحية التي كان يشجعها الكهنة الكاثوليك، بحجة أن هذه التعاونيات كانت "عملاً معادياً للسامية". وهذا الموقف لم يمت بأي شكل من الأشكال حتى في أيامنا هذه؛ ويمكن أن يُشاهد بوضوح في وجهات النظر العنصرية التي يحملها العديد من "المنشقين" في الاتحاد السوفييتي حيال الشعب الروسي، وفي إحجام الكثير من الاشتراكيين اليهود، مثل إسحاق دويتشر، عن البحث في هذه الخلفية. فالدعاية العنصرية القائمة على فكرة التفوق للأخلاق والقوة العقلية اليهودية (والتي برز فيها اشتراكيون يهود عديدون)، كانت، بمجملها، غارقة في انعدام الإحساس بمعاناة ذلك القسم الأكبر من البشرية الذي خضع، بصفة خاصة، للاضطهاد خلال آلاف السنين الغابرة – أي الفلاحين.

2- لقد كان المجتمع اليهودي الكلاسيكي يعتمد، بصفة خاصة، على الملوك أو على النبلاء الذين كانت لهم سلطات ملكية. وسوف نبحث في الفصل التالي القوانين اليهودية المختلفة، الموجهة ضد الأغيار، وخصوصاً تلك القوانين التي تأمر اليهود بشتمهم والامتناع عن امتداحهم أو امتداح عاداتهم. وهذه القوانين لا تسمح إلا باستثناء واحد، وواحد فقط لا غير: ملك من الأغيار، أو قطب محلي قوي، من أقطاب الصناعة أو التجارة (بارتيز بالعبرية، وبورتيز باليديش). فالملك يُمتدح وتُتلى الصلوات من أجله، وهو يُطاع، ليس في معظم الأمور المدنية فحسب، بل في بعض الأمور الدينية أيضاً. وكما سنرى، فإن الأطباء اليهود، الذين يُمنعون عادة، عن إنقاذ حياة الأغيار العاديين أيام السبت، يتلقون الأوامر ببذل أقصى جهدهم لشفاء الأقطاب والحكام؛ وهذا ما يُفسر تفسيراً جزئياً، سبب استخدام الملوك والنبلاء كان يمكن الاعتماد عليهم لبذل أقصى ما يستطيعونه للملك أو البارون، بطريقة لا يستطيع المسيحي تأديتها دائماً، بل جباة الضرائب والرسوم الجمركية اليهود أيضاً، أو وكلاء الإقطاعيات اليهود (في أوروبا الشرقية).

فالوضع القانوني للمجتمع اليهودي في فترة اليهودية الكلاسيكية كان يقوم عادة، على "امتياز" – وهو ميثاق يمنحه ملك أو أمير (أو أحد النبلاء النافذين في بولندا، بعد القرن السادس عشر)، للمجتمع اليهودي، وينعم عليه بحقوق الحكم الذاتي – أي تقليد الحاخامات سلطة إملاء إرادتهم

على اليهود الآخرين. وقد اشتملت مثل هذه الامتيازات على عنصر مهم يعود الى أواخر الامبراطورية الرومانية، ألا وهو إنشاء العزب الكهنوتية اليهودية، تماماً مثلما كان لرجال الدين المسيحيين في القرون الوسطى، وهي عُزب معفاة من دفع الضرائب للملك، ومخولة حق فرض الضرائب ولمصلحتها الخاصة، على الأهالي الذي يعيشون تحت سيطرتها – أي اليهود. ومن المثير للاهتمام أن نلاحظ بأن هذه الصفقة بين الامبراطورية الرومانية القديمة والحاخامات، تسبق بمائة سنة على الأقل، تاريخ إقدام الإمبراطور قسطنطين الكبير وخلفائه، على منح الكهنوت المسيحى الامتيازات المشابهة لها شبهاً كبيراً.

فمنذ العام 200م تقريباً، وحتى أوائل القرن الخامس، كان الوضع القانوني لليهود فى الإمبراطورية الرومانية كما يلى: كان البطريرك اليهودي، الذي يتبوأ منصبه بالوراثة، (ويقيم فى طبريا، فى فلسطين)، بطريركاً معترفاً به كصاحب مقام رفيع في التراتبية الرسمية في الإمبراطورية، وكالرئيس الأعلى لليهود كافة في الامبراطورية (10). وكان البطريرك، بصفته مسؤولاً رومانياً، السيّد اللامع، الذي ينتمي الى طبقة المسؤولين الكبار، التي كانت تضم القناصل وكبار القادة العسكريين في الإمبراطورية، ورؤساء الوزراء المحيطين بالعرش، (المجمع المقدس)، ولا يفوقه مرتبة سوى أفراد العائلة الامبراطورية. وفي الواقع، فقد كان البطريرك اللامع (كما كان يُلقّب دائماً في المراسيم الامبراطورية)، أعلى رتبة من الحاكم الإقليمي لفلسطين. وقد أقدم الإمبراطور ثيودوسيوس الأول، الأكبر، وهو المسيحي الأرثوذوكسي التقي، على إعدام حاكم فلسطين بسبب إهانته للبطريرك.

وفي الوقت نفسه، كان جميع الحاخامات – الذين يعيّنهم البطريرك – يحرّرون من معظم الضرائب الرومانية الجائرة، ويحصلون على إمتيازات رسمية، مثل الإعفاء من الخدمة في مجالس المدن (كان هذا أحد أول الامتيازات التي مُنحت لرجال الدين المسيحيين فيما بعد). وكان البطريرك بالإضافة الى ذلك، مخولاً حق فرض الضرائب على اليهود وتأديبهم بفرض الغرامات والجلْد وغيرها من العقوبات. ولقد استخدم هذه السلطة لقمع الهرطقات اليهودية ولاضطهاد الواعظين اليهود الذين كانوا يتهمونه بفرض الضرائب على فقراء اليهود لمنفعته الشخصية (كما نعرف من التلمود).

ونعرف أيضاً من مصادر يهودية بأن الحاخامات المعفين من الضرائب، كانوا يستخدمون، ضمن نطاق سلطتهم، الحرمان الكنسى وغيره من الوسائل لتعزيز هيمنة البطريرك الدينية. كما نسمع أيضاً، في معظم الأحيان وبصورة غير مباشرة، عن الكراهية والاحتقار الذي كان يكنّه الكثيرون من اليهود الفلاحين وفقراء المدن في فلسطين، للحاخامات، وعن الازدراء أيضاً الذي كان يكنّه الحاخامات للفقراء اليهود، (والذي كان يُعبّر عنه عادة، كازدراء "للجهلة"). ومع ذلك، فقد استمر هذا الترتيب الاستعماري النموذجي، لكونه مدعوماً من جبروت الإمبراطورية الرومانية.

لقد كانت هناك ترتيبات مشابهة، ضمن كل بلد، طوال فترة اليهودية الكلاسيكية بكاملها. إلا أن تأثيراتها على المجتمعات اليهودية كانت تتفاوت بحسب حجم كل مجتمع منها. فحيثما كان هناك قلة من اليهود، كانت الفروقات الاجتماعية قليلة عادة، ضمن المجتمع، الذي كان يتألف من اليهود الأغنياء وتلمود الطبقة الوسطى، الذين تلقى معظمهم تربية حاخامية – تلمودية وافرة. ولكن في البلدان التي كان يكثر فيها عدد اليهود، والتي ظهرت فيها طبقة كبيرة من فقراء اليهود، ظهر الإنقسام نفسه الذي وصفناه أعلاه، ونلاحظ بأن الطبقة الحاخامية المتحالفة مع اليهود الأغنياء، كانت تضطهد فقراء اليهود لمصلحتها الخاصة ولمصلحة الدولة أيضاً – أي مصلحة العرش والنبلاء.

كان هذا هو الوضع في بولندا ما قبل العام 1795، بصفة خاصة. وسنوجز لاحقاً، الظروف الخاصة باليهود البولنديين، ولكننى أود أن أشير هنا، فقط الى الانقسام العميق الذي تطور هناك ابتداء من القرن الثامن عشر، وطوال القرن التاسع عشر، بين الطبقة العليا اليهودية (الحاخامات والاغنياء) وبين الجماهير اليهودية، نتيجة تشكّل مجتمع يهودي كبير في ذلك البلد. ولطالما كان للمجتمع اليهودي سلطة على أفراده، كانت تُقمع تمردات الفقراء، الذين كان عليهم تحمل العبء الأساسي للضرائب، مع بداية نشأتها، بواسطة قوة القهر العارية "للحكم الذاتي" اليهودي، والعقوبات الدينية مجتمعة.

وبسبب كل هذا، كان الحاخامات طوال الفترة الكلاسيكية، (وفي الأزمنة الحديثة أيضاً)، أخلص مؤيدي السلطات الحاكمة، إن لم نقل أشد مؤيديها حماسة؛ وكلما كان الحكم أكثر رجعية كلما حاز على دعم حاخامي أكبر.

3- إن مجتمع اليهودية الكلاسيكية، مجتمع معارض كلية للمجتمع غير اليهودي المحيط به، باستثناء الملك (أو النبلاء عندما يتولون تسيير شؤون الدولة). وهذا ما نبيّنه بياناً وافياً في الفصل الخامس.

وإذا ما أخذنا نتائج هذه السمات الاجتماعية الثلاث، مجتمعة، فإنها تقطع شوطاً كبيراً في تفسير تاريخ المجتمعات اليهودية الكلاسيكية إن في البلدان المسيحية أم في البلدان الإسلامية.

ومكانة اليهود كانت مكانة مؤاتية، بصفة خاصة، فى ظل الأنظمة القوية التى احتفظت بطابعها الإقطاعى، والتى لم يكن قد بدأ يتطور فيها بعد، الوعي القومي، حتى على مستوى أولي. بل كانت هذه المكانة مؤاتية حتى أكثر من ذلك، في بلدان مثل بولندا قبل العام 1795، أو في الممالك الإيبيرية، قبل النصف الثاني من القرن الخامس عشر، حيث كان قد توقف تشكيل الملكية الإقطاعية القوية القائمة على أساس قومي، إما توقفاً

دائماً أو توقفاً مؤقتاً. وفي الواقع، فإن اليهودية الكلاسيكية تزدهر أفضل ما تزدهر، في ظل أنظمة الحكم القوية المنفصلة عن معظم طبقات المجتمع؛ ففي أنظمة كهذه يُنجز اليهود وظيفة من وظائف الطبقة الوسطى – ولكن بشل التبعية الدائمة. ولهذا السبب كانوا يحظون، ليس فقط بمعارضة الفلاحين (الذين لم تكن معارضتهم ذات أهمية إلا في حالات التمرد الشعبي النادرة، التي كانت تنشأ بين الحين والآخر)، بل بالمعارضة الأهم، ألا وهي معارضة الطبقة الوسطى غير اليهودية (التي كانت صاعدة في أوروبا)، ومعارضة رجال الدين من العامة؛ إلا أنهم كانوا محميين من طبقة الكهنوت العليا والنبلاء. ولكن مكانة اليهود كانت تتدهور في البلدان التي كُبح فيها جماح الفوضى الإقطاعية، ودخل نبلاؤها في شراكة مع الملك، (مع قسم من البورجوازية على الأقل)، من أجل حكم الدولة، التي كانت تأخذ شكلاً قومياً أو قومياً بدائياً.

وسوف نوضح الآن باختصار، وببضعة أمثلة، هذا النسق العام الذي يصحّ على البلدان المسلمة والمسيحية على السواء.

إنكلترا وفرنسا وإيطاليا

بما أنالفترة الأولى للإقامة اليهودية فى إنكلترا كانت فترة قصيرة جداً، وتزامنت مع تطور الملكية الإقطاعية القومية الإنكليزية، يمكن أن نستخدم هذا البلد كأفضل نموذج توضيحي للنسق المبين أعلاه. فقد جلب وليام الفاتح اليهود الى انكلترا ليكونوا جزءاً من الطبقة النورمانية الحاكمة، الناطقة بالفرنسية، وليكون واجبهم الأول منح القروض لهؤلاء الأشراف، الروحيين والزمنيين، العاجزين، من دونها، عن دفع ما يتوجب عليهم من رسوم إقطاعية (التي كانت رسوماً باهظة في إنكلترا بصفة خاصة، وكانت تُجبى في تلك الفترة بصرامة أكثر مما كان يحصل في الملكيات الأوروبية الأخرى). وكان حاميهم الملكي الأكبر آنذاك، الملك هنري الثاني، ولكن صدور البراءة العظمى (Magna Carta) شكّل بداية تدهورهم الذي استمر خلال نزاع البارونات مع هنري الثالث. وكان الحل المؤقت لهذا النزاع، الذي حققه ادوارد الأول، مع تشكيل البرلمان وتحديد الضرائب "العادية" الثابتة، قد ترافق مع طرد اليهود.

وعلى نحو مماثل، فقد ازدهر وضع اليهود في فرنسا إبان تشكيل الإمارات الإقطاعية القوية في القرنين، الحادي عشر والثاني عشر، بما فيها الحوز الملكي؛ وكان أفضل حماتهم من بين ملوك أسرة كابيتيان، الملك لويس السابع عشر (1137 – 180)، على الرغم من تقواه ومسيحيته المخلصة والعميقة. ولقد اعتبر يهود فرنسا أنفسهم، في ذلك الوقت، فرساناً

(باراشيم، بالعبرية)، وكان حاخامنا تام، أبرز المراجع اليهودية في فرنسا آنذاك، يحذرهم من قبول أي دعوة من سيد إقطاعي للاستقرار في إقطاعته ما لم يمنحهم امتيازات مماثلة لتلك الامتيازات التي يتمتع بها الفرسان الآخرون.

وفي عهد فيليب الثاني أغسطس، مُنشئ التحالف السياسي والعسكري مع التاج، بدأ وضع اليهود يتدهور مع صعود حركة المشاعية المدينية، ثم هوى وضعهم فى عهد فيليب الرابع، الوسيم، الذي عقد اجتماع أول مجلس تشريعي لكل فرنسا، ليكسب الدعم ضد البابا. وقد ارتبط الطرد النهائى لليهود من كل فرنسا، ارتباطاً وثيقاً بالارساء المتين لحقوق التاج بفرض الضرائب وللطابع القومي للملكية.

ويمكننا أن نورد أمثلة مشابهة من بلدان أوروبية أخرى كان يعيش فيها اليهود خلال تلك الفترة. وإن احتفظنا ببولندا وإسبانيا المسيحية من أجل بحث مفصل أكثر، نستطيع أن نلحظ بأن التناسق نفسه كان بادياً في إيطاليا، حيث كان شكل السلطة في العديد من المدن التي كانت تشكل دولاً، شكلاً جمهورياً. فقد ازدهر وضع اليهود خصوصاً في الولاياد البابوية، وفي المملكتين الاقطاعيتين التوأمين، في صقلية ونابولي، (وحتى طردهم بأوامر إسبانيا، في حوالي العام (1500م)، وفي الجيوب الإقطاعية في بيدمونت. أما فى المدن المستقلة والتجارية العظيمة، مثل فلورنسا، فقد كان عددهم قليلاً ودورهم الاجتماعى ليس مهماً.

العالم الإسلامي

وينطبق النسق العام نفسه، على المجتمعات اليهودية خلال الفترة الكلاسيكية في البلدان الإسلامية أيضاً، باستثناء حقيقة مهمة وهي أن طرد اليهود لم يكن معروفاً فيها عملياً، لأنه كان مناقضاً للشريعة الإسلامية. (أما القانون الكنسي الكاثوليكي من ناحية أخرى، فلم يكن يمنع مثل هذا الطرد، كما لم يكن يأمر به).

ولقد ازدهرت المجتمعات اليهودية في العصر الذهبي اليهودي الشهير، ولكن الذي أسيء تفسيره اجتماعياً، في البلدان الإسلامية، وخصوصاً في ظل الأنظمة التي كانت منفصلة عن الأكثرية الساحقة من الشعوب التي تحكمها، والتي كانت سلطتها تستند الى القوة المجرّدة وجيش من المرتزقة. وأفضل الأمثلة على ذلك، إسبانيا المسلمة، حيث نلاحظ أن العصر الذهبي اليهودي الحقيقي (للشعر العبري وقواعد اللغة والفلسفة الخ)، يبدأ، بالضبط مع سقوط الخلافة الأموية في إسبانيا، بعد موت الحاكم الفعلي، المنصور، في عام 1002م. وإنشاء ممالك الطوائف المتعددة، التي كانت قائمة كلها، على القوة المجرّدة. أما القائد العام اليهودي الشهير،

ورئيس وزراء مملكة غرناطة، صموئيل الرئيس (وهو شموئيل هانجيد، الذي توفي عام 1056)، والذي كان أيضاً أحد أعظم الشعراء بالعبرية في العصور كافة، فقد قام صعوده أساساً، على حقيقة أن المملكة التي كان يخدمها، كانت طغياناً لقوة عسكرية من البربر، صغيرة نوعاً ما، تمارسه على السكان الناطقين بالعربية. كما نشأ وضع مماثل في ممالك الطوائف العربية الأخرى في إسبانيا. لقد تدهور وضع اليهود نوعاً ما، مع إنشاء نظام المرابطين (1086 – 1090)، وأصبح مزعزعاً تماماً في ظل نظام الموحّدين الشعبي القوي (بعد العام 1147)، عندما هاجر اليهود، نتيجة الاضطهاد، الى الممالك الاسبانية المسيحية، حيث كانت قوة الملوك لا تزال قوة ركيكة جداً.

ويمكننا أن نُبدي ملاحظات مماثلة بالنسبة الى الدول الإسلامية فى الشرق. فالدولة الأولى التي بلغ فيها المجتمع مركز نفوذ سياسي مهم، كانت الإمبراطورية الفاطمية، خصوصاً بعد فتح مصر في عام 969، وبالضبط لأنها كانت تقوم على حكم الأقلية الدينية الشيعية الإسماعيلية. ويمكننا أيضاً، أن نلاحظ الظاهرة نفسها في الدول السلجوقية – التي كانت قائمة على جيوش من النمط الإقطاعى، وعلى المرتزقة، وعلى قواتن العبيد (المماليك) بصورة متزايدة – وفي الدول التي خلفتها أيضاً. ولم تكن محاباة صلاح الدين للمجتمعات اليهودية، في مصر أولاً، ثم في أجزاء أخرى من هذه الإمبراطورية الموسعة، تقوم على أساس صفاته الشخصية الحقيقية، وعلى تسامحه ومحبته وحكمته السياسية العميقة، بل على أساس صعوده الى السلطة كقائد ثوري لمرتزقة كانوا قد وصلوا لتوهم، من مصر، ثم كمغتصب لسلطة السلالة الحاكمة التي خدمها هو وأبوه وعمه من قبله.

ولكن ربما كان أفضل الأمثلة الإسلامية، الدولة التي كان وضع اليهود فيها أفضل من وضعهم في أي مكان آخر في الشرق، منذ انهيار الامبراطورية الفارسية القديمة – ألا وهي الامبراطورية العثمانية، وخصوصاً في أوجها في القرن السادس عشر (11). فقد كان النظام العثماني، وكما هو معروف جيداً، قائماً مبدئياً، على الاستبعاد الكامل تقريباً، للأتراك أنفسهم، (كي لا نذكر المسلمين الآخرين بالولادة)، عن مراكز السلطة السياسية وعن أهم الفرق في الجيش أي الفرق الانكشارية؛ فهذان المجالان كانا يُزودان بعبيد السلطان المسيحيين بالولادة، الذين كانوا يُخطفون وهم أطفال، وتجري تربيتهم في مدارس خاصة. وحتى نهاية القرن السادس عشر، لم يكن يستطيع أي تركي وُلد حراً، أن يصبح انكشارياً، أو أن يتولى أي منصب حكومي مهم. وكان دور اليهود في مجالهم، في ظل نظام كهذا، مشابهاً تماماً لدور الانكشارية في مجالهم. وهكذا، فقد كان وضع اليهود على أفضل حال، فى ظل نظام كان على الصعيد السياسى، منفصلاً أقصى الانفصال، عن الشعوب التى كان يحكمها. ولكن وضع اليهود راح يتدهور، مع قبول الأتراك أنفسهم (وبعض الشعوب المسلمة الأخرى أيضاً، مثل

الألبانيين) في الطبقة الحاكمة للامبراطورية العثمانية. إلا أن هذا التدهور في وضعهم، لم يكن تدهوراً حاداً جداً، بسبب استمرار عَسَف النظام العثماني وطابعه اللاقومي.

وهذه النقطة مهمة جداً في رأيي، لأن وضع اليهود الجيد نسبياً، في ظل الإسلام عموماً، وخصوصاً في ظل أنظمة معينة، يستخدمه الكثيرون من صانعي الدعاية الفلسطينيين، وغيرهم من العرب، بطريقة تنمّ عن جهل كبير، وأن تكن حسنة النية. فهم يعمّمون، ويقلصون المسائل الجدية، السياسية والتاريخية، الى مجرد شعارات. صحيح أن وضع اليهود في ظل الإسلام، كان، أفضل بكثير من وضعهم في ظل المسيحية – إلا أن السؤال المهم الذي ينبغى طرحه هو: أيّ الأنظمة كانت هى الأفضل أو الأسوأ؟ وقد رأينا الى أين يقودنا تحليل كهذا.

ولكن الأمر الثاني، والأهم، هو أن الوضع "الأفضل" للمجتمع اليهودي في الدول ما قبل الحديثة، كان يستتبع درجة أكبر من الطغيان الذي يمارسه الحاخامات ضد اليهود الآخرين ضمن هذا المجتمع. ولنُعط مثلاً واحداً على ذلك : لا شك أن شخصية صلاح الدين، إذا أخذنا عصره في الاعتبار، شخصية توحي بالاحترام العميق. ولكنني مع هذا الاحترام، لا أستطيع أن أنسى بأن الامتيازات الإضافية التى منحها للمجتمع اليهودي فى مصر، وتعيينه بن ميمون كرئيس (نجيد) لهم، أطلق على الفور يد الحاخامات لممارسة اضطهاد دينى عنيف ضد "الخطاة" اليهود. وعلى سبيل المثال، فقد كان الزواج محرّماً على "الكهنة" اليهود (الذين يفترض أنهم متحدرون من الكهنة القدىمى الذين خدموا في الهيكل)، ليس من مؤمسات (12) فحسب، بل من مطلقات. وتحريم الزواج من مطلقات، والذي كان يسبب المصاعب دائماً، انتهك خلال الفوضى التي عمت في ظل آخر الحكام الفاطميين (حوالي 1130 – 1180)، عندما تزوج "كهنة"، وخلافاً للشرع الديني اليهودي، من مطلقات فالتسامح الأكبر تجاه "اليهود" الذي أرساه صلاح الدين لدى صعوده الى السلطة، مكّن بن ميمون من إصدار الأوامر الى المحاكم الحاخامية في مصر، لإلقاء القبض على كل اليهود الذين عقدوا مثل هذه الزيجات الممنوعة، وجلْدهم الى أن يوافقوا على طلاق زوجاتهم (13). وعلى نحو مماثل، كانت سلطات المحاكم الحاخامية في الإمبراطورية العثمانية، واسعة جداً، وبالتالي، وبيلة الى أقصى الحدود. لذلك، ينبغى ألا يُستخدم وضع اليهود فى البلدان الإسلامية فى الماضى، على الإطلاق، كحجة سياسية فى المضامين المعاصرة (أو المستقبلية).

اسبانيا المسيحية

لقد تركتُ اسبانيا المسيحية (14) (أو بالأحرى شبه جزيرة ايبيريا، بما فيها)، وبولندا ما قبل العام 1795، تركتهما لآخر البحث، لأنهما البلدان

اللـذان كـان فيهمـا وضـع المجتمـع اليهـودي والتطـور الـداخلي لليهوديـة الكلاسيكية، غاية في الأهمية.

فعلى الصعيد السياسي، بلغ وضع اليهود في ممالك اسـبانيا المسـيحية، أعلى مستوى بلغه اليهود على الإطلاق، في أي بلد آخر من البلدان قبـل القـرن التاسـع عشـر (باسـتثناء بعـض ممالـك الطوائـف، وفـي ظـل الحكـم الفـاطمي). فقـد خـدم العديـد مـن اليهـود، رسـمياً، كأمناءخزينـة لملـوك قشتالة، وكجباة ضرائب عامة وإقليمية، وكديبلوماسـيين (يمثلـون ملـيكهم في البلاطات الملكيـة الأجنبيـة، مسـلمة كانـت أم مسـيحية، حتـى خـارج إسبانيا نفسها)، وكرجال بلاط ومستشارين للحكـام وللنـبلاء العظـام. ولـم يمـارس المجتمـع اليهـودي فـي أي بلـد آخـر، باسـتثناء بولنـدا، مثـل هـذه السلطات الشرعية العظيمة على اليهود، أو يستخدمها علناً، وعلى نطاق واسع، الى هذا الحد الذي يشمل سلطة إنزال عقوبة الإعـدام أيضـاً. ومنـذ القرن الحادي عشر كان شائعاً في قشتالة اضطهاد فرقة القـرائين رافضـي التلمود (وهم طائفة يهودية مارقة عن الدين) وذلك بجلْـدهم حتـى المـوت إذا لـم يعلنـوا تـوبتهم. وكـان الحاخامـات يجـدعون أنـوف النسـاء اليهوديـات اللـواتي يجـامعن الأغيـار، بحجـة أن الامـرأة "بهـذه الطريقـة، سـوف تفقـد جمالها فيصبح عشيقها غير اليهودي كارهاً لها". وكانت تُقطع أيـدي اليهـود الذين كانوا يجرأون علـى الاعتـداء علـى قـاضٍ حاخـامى. أمـا الزنـاة فكـانوا يُسجنون ولكن من بعد جعلهم يركضون في الحي اليهودي، بين صفين من الرجال الذين كانوا ينهالون عليهم ضرباً بالعصي. وكانت تُقطع ألسـن الـذين يُظن، أثناء الجدالات الدينية، بأنهم مارقون عن الدين.

ولقد كان كـل هـذا مرتبطـاً تاريخيـاً، بالفوضـى الإقطاعيـة، وبمحاولـة بعض "الملوك الأقوياء" الحكم بواسـطة القـوة المحضـة، متجـاهلين المؤسسـات البرلمانية، الكورتيز، الذي كان موجوداً في ذلك الحين. ولم تكن قوة اليهـود السياسية والمالية وحدها، القوة الأكثر أهمية في هذا الصراع، بـل قـوتهم العسكرية أيضاً (على الأقل في قشتالة، التي كانت أهم الممالك). وسوف يكون مثل واحد هنا كافيـاً: لقـد بلـغ سـوء الحكـم الإقطـاعي ونفـوذ اليهـود السياسى ذروتهما فى عهد بيدرو الأول، الذي كان يُلقب ببيدرو "القاسى" وعن حق. وكانت المجتمعات اليهدية في طليطلة، وبورغوس، وغيرهما من المدن الكثيرة، تخدم عملياً، حكاميات له في الحـرب الأهليـة الطويلـة بينـه وبين أخيه، غير الشقيق، هنري تراستمارا، الذي صار يُدعى بعـد انتصـاره، هنري الثاني (1369 – 1379م) (15). وبيـدرو الأول هـذا بنفسـه، هـو الـذي أعطى يهـود قشـتالة حـق إنشـاء محـاكم تفتـيش فـي أنحـاء الـبلاد، ضـد المنحرفين الدينيين من اليهود – أي قبل مايزيد على مائة عـام مـن إنشـاء محاكم التفتيش المقدسة الكاثوليكية الأكثر شـهرة.

وكمـا حصـل فـي البلـدان الأوروبيـة الغربيـة الأخـرى، أن الظهـور التـدريجي للوعي القومي حول الملكية، الذي بـدأ فـي عهـد عائلـة تراسـتمارا، وبلـغ

ذروته، بعد صعود وهبوط، في عهد الملكين الكاثوليكيين، فرديناند وايزابيلا، قد رافقه أولاً، تدهور في مكانة اليهود، ثم حركات وضغوطات شعبية ضدهم، أدت في النهاية، الى طردهم. وعلى العموم، كان النبلاء وكبار رجال الدين هم الذين يدافعون عن اليهود. فالمعادون لهم كانوا أولئك الرهبانيات الأكثر عامية في الكنيسة، خصوصاً جماعات الكهنة الذين كانوا يعيشون على الصدقة، والذين كانوا على علاقة بحياة الطبقات الدنيا، التي كانت معادية لليهود، وكان الدّ أعداء اليهود، ثوركيمادا والكاردينال زيمينيز، وهما من كبار الإصلاحيين فى الكنيسة الإسبانية، قد جعلاها أقل فساداً وأكثر اعتماداً على الملكية الى حد كبير، عوضاً من أن تكون حكراً على الارستقراطية الاقتصادية.

بولندا

إن بولندا القديمة، ما قبل العام 1795 – كانت جمهورية إقطاعية يحكمها ملك بالانتخاب – هي مثل نقيض؛ فهي توضح كيف كانت مكانة اليهود، قبل قدوم الدولة الحديثة، مكانة غاية في الأهمية على الصعيد الاجتماعي، وكيف كان حكمهم الذاتي الأعظم، في ظل نظام متخلف تماماً، والى درجة الانحطاط الكامل.

لقد كانت بولندا القرون الوسطى متأخرة فى تطورها، عن بلدان مثل انكلترا وفرنسا لأسباب عديدة؛ فقد تشكلت فيها ملكية على النمط الاقطاعي – ولكن من دون مؤسسات برلمانية – فقط في القرن الرابع عشر، وخصوصاً في عهد كازيمير الأكبر (1333 – 1370). وفور وفاته، أدت التغييرات في الأسرة الحاكمة، وغيرها من العوامل، الى تطور متسارع في قوة الأقطاب من النبلاء، ثم في قوة صغار النبلاء أيضاً؛ ومع حلول العام 1572، كانت عملية تقليص الملك الى مجرد شخصية صورية، واستبعاد الإقطاعيين من غير النبلاء، عن السلطة السياسية، قد اكتملت عملياً.

وخلال مسار القرنين التاليين، تحوّل انعدام الحكم الى حالة من الفوضى مسلماً بها، والى درجة أن قراراً صادراً عن المحكمة في قضية تمسّ أحد النبلاء، كان يؤخذ كمجرد ترخيص قانوني لشن حرب خاصة من أجل فرض حكم المحكمة (لأنه لم تكن هناك طريقة أخرى لفرضه)؛ والى درجة أن العداوات المزمنة بين الأسر النبيلة الكبيرة، كانت فى القرن الثامن عشر، تشمل جيوشاً خاصة يصل عددها الى عشرات الآلاف، أي ما يفوق عدد القوات التافهة لجيش الجمهورية الرسمي.

وقد رافق هذا المسار انحطاطاً فى مكانة الفلاحين البولنديين (الذين كانوا أحراراً في القرون الوسطى الأولى)، والى حد سقوطهم في نظام القنانة المطلق، الذي لا يكاد يتميز عن العبودية الكاملة، والذي كان بالتأكيد، النظام الأسوأ في أوروبا. وفي البلدان المجاورة، كانت رغبة نبلائها في

التمتع بسلطة مماثلة لسلطة النبيل البولندي (Polish pan) على فلاحيه، (بما فيها سلطة الحياة والموت بدون أي حق بالاستئناف)، قد لعبت دوراً فعالاً في توسّع بولندا الإقليمي. وكان الوضع في أراضي بولندا "الشرقية" (روسيا البيضاء وأوكرانيا) – التي استعمرها الفلاحون المستعبدون الجدد واستوطنوها – من أسوأ الأوضاع على الإطلاق (16).

وعلى ما يبدو، فقد كان عدد ضئيل من اليهود (وأن من ذوي المراكز المهمة)، يعيشون في بولندا، منذ إنشاء الدولة البولندية. وكانت قد بدأت في القرن الثالث عشر هجرة يهودية ذات شأن، الى هذا البلد، ازدادت في عهد كازيمير الأكبر مع تداعي وضع اليهود في أوروبا الغربية، ثم في أوروبا الوسطى. ولم يُعرف الكثير عن اليهود البولنديين في تلك الفترة؛ ولكن مع تداعي الملكية في القرن السادس عشر – خصوصاً في عهد سيغيسماند الأول، العجوز، (1506 – 1548)، وابنه سيغيسماند الثاني أغسطس (1548 – 1572) – انطلق اليهود البولنديين الى تبوء مركز اجتماعي وسياسي بارز، رافقته، كما عهدنا من قبل، درجة كبيرة من الحكم الذاتي.

وكانت هذه هي الفترة التي مُنح فيها يهود بولندا امتيازاتهم الكبرى، والتي بلغت ذروتها في إنشاء لجنة الأراضي الأربع الشهيرة، التي كانت عبارة عن جهاز يهودي للحكم الذاتي شديد الفعالية، تشمل سلطته جميع اليهود في تقسيمات بولندا الأربعة. وكانت وظيفة من وظائفه المهمة العديدة، جباية الضرائب كافة من اليهود في أنحاء البلاد وحسم جزء من ريعها لاستخدام الجهاز نفسه، وللجاليات اليهودية المحلية، وتسليم الباقي لخزانة الدولة.

فأي دور اجتماعي لعبه يهود بولندا من بداية القرن السادس عشر وحتى العام 1795؟

مع تداعي سلطة الملكية سارع النبلاء الى تولي دور الملك فيما يتعلق باليهود – وكان لهذا التطور نتائج مأساوية مستديمة لليهود أنفسهم، ولعامة الشعب في الجمهورية البولندية. فقد استخدم النبلاء اليهود في أنحاء بولندا، كعملاء لهم لتقويض القوة التجارية للمدن الملكية، التي كانت في أي حال، مدناً ضعيفة. فمن بين البلدان في العالم المسيحي الغربي كانت أملاك نبلاء بولندا وحدها داخل المدينة الملكية، مُعفاة من قوانين المدينة ومن الأنظمة النقابية. وقد أقدم النبلاء في حالات عديدة، على توطين عملائهم اليهود في مثل هذه الأملاك، مثيرين بذلك نزاعاً دائماً. وكان اليهود "منتصرين" عادة، بمعنى أن المدن لم تكن تستطيع لا إخضاعهم ولا طردهم؛ ومع ذلك، كانت تقع خسائر يهودية في الأرواح (وحتى أكثر منها في الممتلكات اليهودية)، خلال أعمال الشغب الشعبية التي كانت تقع تكراراً. إلا أن النبلاء ظلوا يحصلون على أرباحهم. ولقد ترتبت نتائج مماثلة، أو نتائج أسوأ، من جراء استخدام النبلاء لليهود، وبشكل

مستمر، كعملاء تجاريين لهم: فقد أحرزوا إعفاءات من معظم الرسوم والمكوس شكّلت خسارة للبورجوازية الوطنية.

ولكن النتائج الأكثر مأساوية والتي دامت وقتاً طويلاً، كانت تلك التي حصلت في أقاليم بولندا الشرقية – وهي المنطقة التي تقع شرقي الحدود الحالية تقريباً، بما فيها كامل أوكرانيا الحالية، وصولاً الى حدود المناطق الناطقة باللغة الروسية – العظيمة.

(فحتى عام 1667، كانت الحدود البولندية تجاوز نهر الدنيبر شرقاً، بحيث كانت بولتافا مثلاً، تقع ضمن بولندا). ولم تكن في هذه الأراضي الواسعة أي مدن ملكية تقريباً. فقد كان النبلاء هم الذين أنشأوا هذه المدن، وكانت تعود لهم، ولكن اقتصر استيطانها على اليهود تقريباً. وحتى العام 1939، كان اليهود يشكلون 90 بالمائة على الأقل، من سكان العديد من المدن البولندية الواقعة شرقي نهر باغ، وكانت هذه الظاهرة الديمغرافية أكثر بروزاً في تلك المنطقة من بولندا التي ضمتها روسيا القيصرية، وتُعرف باسم "الحد الفاصل" اليهودي. وخارج نطاق هذه المدن، كان الكثير من اليهود في أنحاء بولندا، ولكن خصوصاً في الشرق، يُستخدمون كمضطهدين لطبقة الفلاحين المستعبدين وكمشرفين مباشرين عليهم – كوكلاء لعزب بكاملها (مخوّلين سلطات ملاّكي الأراضي القمعية كاملة)، أو كمستأجرين لبعض الاحتكارات الإقطاعية مثل مطاحن القمح والأفران، ومعامل تقطير الخمور والحانات (مع حق التفتيش بقوة السلاح، في بيوت الفلاحين بحثاً عن معامل تقطير غير مرخصة)، وكجباة لمختلف أنواع الرسوم الإقطاعية المعهودة. باختصار، كان اليهود في بولندا الشرقية، خاضعين لحكم النبلاء (والكنيسة التي باتت إقطاعية، ومُشكّلة حصراً، من النبلاء) المستغلّين المباشرين لطبقة الفلاحين، وسكان المدن الوحيدين عملياً.

ولا ريب في أن معظم الأرباح التي كانوا ينتزعونها من الفلاحين كانت تذهب الى ملاكي الأراضي بطريقة أو بأخرى.

ولا ريب أيضاً، في أن اضطهاد النبلاء لليهود وقهرهم، كان اضطهاداً قاسياً، وتروي السجلات التاريخية روايات كثيرة ومؤلمة، عن المعاناة والإذلال الذي كان يلحقه النبلاء بـ"يهودهم". ولكن، كما لحظنا من قبل، فقد كان الاضطهاد الذي عانى منه الفلاحون على أيدي الملاكين واليهود اضطهاداً يفوقه سوءاً. ويُمكن للمرء أن يفترض بأن وطأة الشرائع الدينية اليهودية ضد الأغيار كانت تقع بكامل ثقلها على كاهل الفلاحين باستثناء أزمنة الانتفاضات الفلاحية. وكما سنرى في الفصل التالي، فإن هذه الشرائع كانت تُعلّق أو تُلطّف، في الحالات التي كان يُخشى فيها احتمال إثارة العداء الخطير تجاه اليهود. ولكن كان تجاهل عداء الفلاحين كعداء غير مؤثر، أمراً ممكناً، ما دام الوكيل اليهودي يستطيع الاحتماء في "سلام" سيّد من الأسياد الكبار.

ولقد بقي الوضع راكداً حتى حلول الدولة الحديثة، وكانت قد تقطّعت أوصال بولندا في حينها. ولذلك، كانت بولندا البلد الكبير الوحيد في العالم المسيحي الغربي الذي لم يُطرد منه اليهود علي الإطلاق. ولم يكن ممكناً نشوء طبقة متوسطة جديدة من طبقة فلاحين مستعبدين استعباداً كلياً؛ وقد كانت البورجوازية القديمة محصورة جغرافياً، وضعيفة تجارياً، وبالتالي، لا قوة لها. وبالإجمال، راحت الأمور تتدهور باطراد، من سيء الى أسوأ، ولكن من دون أي تغيير حقيقي.

وسارت الأوضاع الداخلية ضمن المجتمع اليهودي في مسار مماثل. ففي الفترة ما بين 1500 – 1795، وهي إحدى أكثر الفترات التي استبدت بها الخرافات في تاريخ اليهودية، كان اليهود البولنديون أكثر الجاليات اليهودية تعصباً وتعلقاً بهذه الخرافات، على الإطلاق. ولقد استُخدمت السلطة الواسعة للحكم الذاتي اليهودي، استخداماً متزايداً، لكبت الأفكار الخلاقة أو المبدعة، وتعزيز أشد أشكال الاستغلال المخزي للفقراء اليهود من قبل الأغنياء اليهود بالتحالف مع الحاخامات، وتبرير دور اليهود في اضطهاد الفلاحين لخدمة النبلاء. وهنا أيضاً، لم يكن من مفر إلا بالتحرير من الخارج. إن بولندا ما قبل العام 1795، حيث كان الدور الاجتماعي لليهود أهم من أي دور اجتماعي آخر ليهود الشتات الكلاسيكي، توضح أكثر من أي بلد آخر، إفلاس اليهودية الكلاسيكية.

اضطهادات اليهود

غالباً ما كان اليهود، طوال فترة اليهودية الكلاسيكية، يخضعون للاضطهاد (17). – وهذه الحقيقة تخدم الآن كـ"الحجة" الرئيسية للمدافعين عن الديانة اليهودية بشرائعها المعادية للأغيار، وعن الصهيونية بصفة خاصة. وبالطبع، يفترض أن تكون الإبادة النازية لنحو خمسة ملايين أو ستة ملايين يهودي أوروبي، الحجة التي تتوج حجج هذا الخط من التفكير. لذلك علينا أن ننظر في هذه الظاهرة وفي سمتها المعاصرة. ولهذا الأمر أهمية خاصة في ضوء حقيقة أن المتحدرين من يهود بولندا ما قبل العام 1795، (وغالباً ما يُطلق عليهم اسم "اليهود الأوروبيين الشرقيين" – كنقيض ليهود المجال الثقافي الألماني في أوائل القرن التاسع عشر، بما فيه النمسا وبوهيميا وموراڤيا)، هم اليهود الذين يمارسون السلطة السياسية الغالبة في إسرائيل، وفي وسط الجاليات اليهودية أيضاً، في الولايات المتحدة وغيرها من البلدان الناطقة بالإنكليزية. وهذا النمط من التفكير المترسّخ في وسطهم بصفة خاصة، أكثر بكثير مما هو مترسّخ فى وسط غيرهم من اليهود، يعود الى تاريخهم الماضى الخاص.

وعلينا أولاً، أن نميز تمييزاً واضحاً، بين اضطهاد اليهود خلال الفترة الكلاسيكية من جهة، وبين الإبادة النازية من جهة أخرى. فاضطهاد اليهود خلال الفترة الكلاسيكية كان اضطهاد الحركات الشعبية لهم، أي كان اضطهاداً آتياً من أسفل؛ بينما الإبادة النازية كانت أمراً مُوحى به ومنظم ومُنفّذ من أعلى: من مسؤولي الدولة.

وإن أعمالاً مثل الإبادة النازية، التي هي من تنظيم الدولة، كانت أعمالاً نادرة نسبياً في تاريخ البشرية على الرغم من وجود حالات أخرى (مثل إبادة التاسمانيين وغيرهم من الشعوب التي كانت مستعمرة). علاوة على ذلك، كانت النازية تعتزم إبادة شعوب أخرى أيضاً، غير اليهود: فلقد أبيد الغجر مثلما أبيد اليهود، وكانت إبادة السلافيين جارية، بواسطة المذابح المنسّقة لملايين المدنيين وأسرى الحرب. لذا، فإن اضطهاد اليهود الذي كان شائعاً فى العديد من البلدان خلال الفترة الكلاسيكية، أعطى النموذج (والعذر) للسياسيين الصهيونيين في اضطهادهم للفلسطينيين، والحجة أيضاً، التي يستخدمها المدافعون عن اليهودية عموماً؛ وأننا الآن، بصدد النظر في هذه الظاهرة.

وينبغي أن نشير الى أنه في أسوأ أعمال الاضطهاد المعادية لليهود، أي تلك التي قُتل فيها يهود، وفيها كلها، كانت النخبة الحاكمة – أي الإمبراطور والبابا والملوك والارستقراطية العليا، وكبار الكهنة، والبورجوازية الغنية أيضاً في المدن التي تتمتع بالحكم الذاتي – كانت دائماً الى جانب اليهود.

فقد كان أعداء اليهود ينتمون الى الطبقات المضطهدة والمُستغلة أكثر من غيرها، وهؤلاء القريبون منهم في حياتهم اليومية ومصالحهم، مثل الرهبان الذين ينتمون الى الرهبنة التي تعيش على الصدقة (18). صحيح أنه في معظم الحالات (وليس كلها، حسبما أعتقد) كان أفراد النخبة الحاكمة يدافعون عن اليهود ليس لاعتبارات إنسانية، أو بسبب تعاطفهم مع اليهود بوصفهم يهوداً، بل لتلك الأسباب التي يستخدمها الحكام عادة، لتبرير مصالحهم، وهي حقيقة أن اليهود كانوا مفيدين ومصدراً للربح (لهم)، ودفاعاً عن "القانون والنظام"، وكراهية الطبقات الدنيا، والتخوّف من إمكانية تطور أعمال الشغب المناهضة لليهود، الى ثورة شعبية عامة. ومع ذلك، تبقى حقيقة أنهم دافعوا فعلاً عن اليهود. ولهذا السبب، كانت المجازر كافة ضد اليهود خلال الفترة الكلاسيكية، جزءاً من ثورة فلاحية أو حركات شعبية أخرى، في أوقات كان الحكم فيها ضعيفاً بصفة خاصة، لسبب من الأسباب. ويصحّ هذا القول حتى فى حالة روسيا القيصرية الاستثنائية الى حد ما. فالحكم القيصري كان يشجع المذابح خفية، بواسطة شرطته السرية؛ ولكنه كان يفعل ذلك فقط عندما يكون ضعيفاً بصفة خاصة (بعد اغتيال الكسندر الثاني عام 1881، وفي الفترة التي سبقت مباشرة ثورة العام 1905، التي تلتها مباشرة أيضاً)، وحتى عند ذلك، كان يحرص على احتواء انهيار "القانون والنظام". وعلى سبيل المثال، فخلال فترات قوته الكبرى –

في عهد نيكولاس الأول، أو في القسم الأخير من عهد الكسندر الثالث، عندما كانت المعارضة قد سُحقت – لم يكن النظام القيصري يتسامح إزاء المجازر، على الرغم من أن التمييز القانوني ضد اليهود كان قد ازداد حدة.

وبالإمكان ملاحظة القاعدة العامة في المجازر الرئيسية كافة ضد اليهود في أوروبا المسيحية. فخلال الحملة الصليبية الأولى، لم تكن جيوش الفرسان النظامية، بقيادة دوق أو كونت شهير، هي التي تتعرض بالسوء لليهود، بل الحشود الشعبية هى التى كانت تتجمع بعفوية، وتتألف حصراً تقريباً، من الفلاحين والمعدمين السائرين على خطى الكاهن بطرس الناسك. ففي كل مدينة كان الأسقف، أو ممثل الإمبراطور، يبديان معارضتهما لهم، ويحاولان حماية اليهود (19)، وغالباً من دون جدوى – وكانت أعمال الشغب ضد اليهود فى إنكلترا التى رافقت الحملة الصليبية ريتشارد الأول بعض المشاركين في أعمال الشغب. أما المجازر ضد اليهود خلال تفشي الموت الأسود فقد ارتُكبت خلافاً للأوامر الصارمة، الصادرة عن البابا والإمبراطور والأساقفة والأمراء الألمان. وكان يسبقها عادة، في المدن الحرة، مثل ستراسبورغ، الثورة المحلية التي كانت تطيح بالمجالس البلدية الأوليغارشية، التي كانت تحمي اليهود، وتبدلها بمجالس أكثر شعبية. وقد وقعت المجازر الكبرى ضد اليهود، في إسبانيا، عام 1391، في ظل حكم وصاية ضعيف، وفي وقت كانت فيه البابوية وقد أضعفها الشقاق بين البابوات المتنافسين، عاجزة عن السيطرة على جماعة الرهبان الفقراء الذين يعيشون على الصدقة.

وربما كان المثل الأبرز، تلك المجزرة الكبيرة ضد اليهود التي ارتُكبت خلال تمرّد شميلنيسكي في أوكرانيا (عام 1648)، الذي بدأ كتمرد لضباط القازاق، ولكنه سرعان ما تحول الى حركة شعبية واسعة للفلاحين المستعبدين: المحرومين، الرعايا، الأوكرانيين، الأرثوذوكسيين [الذين كانت تضطهدهم الكنيسة الكاثوليكية البولندية] والذين كانوا يثورون ضد أسيادهم البولنديين الكاثوليك، وخصوصاً ضد أسيادهم وكلاء الإقطاع ورجال الدين واليهود (20). وهذه الانتفاضة الفلاحية ضد الاضطهاد المتطرف، وهي انتفاضة لم ترافقها المجازر، التي ارتكبها الثوار فحسب، بل حتى الفظائع "والإرهاب المضاد" الأشد هولاً الذي ارتكبته جيوش الأقطاب البولنديين الخاصة (21)، بقيت انتفاضة محفورة في وعي اليهود الأوروبيين الشرقيين الى يومنا هذا، ولكن ليس كانتفاضة فلاحية، كثورة المضطهدين، معذبي الأرض الحقيقيين، ولا حتى كانتقام ينزل على النبلاء البولنديين كافة، بل كعمل معاد للسامية لا مبرر له، موجه ضد اليهود كيهود. وفى الواقع، غالباً ما "تفسّر" الصحافة الإسرائيلية تصويت البعثة الأوكرانية في الأمم المتحدة، والسياسات السوفييتية حول الشرق الأوسط، بصورة عامة أكثر، كـ"تراث شميلنيسكى" أو "المتحدرين" منه.

معادات السامية الحديثة

مرّ طابع الاضطهادات المعادية لليهود بتغيير جذري في الأزمنة الحديثة. فمع قدوم الدولة الحديثة، وإلغاء نظام القنانة، وإحراز حقوق الفرد في حدها الأدنى، تختفي بالضرورة، وظيفة اليهود الخاصة، الاجتماعية – الاقتصادية. وتختفي معها أيضاً، سلطات المجتمع اليهودي على أفراده، وتكتسب أعداد متزايدة من الأفراد اليهود حرية الدخول الى المجتمع العام في بلدانها. وكان من الطبيعي أن يثير هذا الانتقال من حال الى أخرى، ردة فعل عنيفة من جانب اليهود (خصوصاً حاخاماتهم)، ومن جانب تلك العناصر في المجتمع الأوروبي التي تعارض المجتمع المفتوح، والتي كان مسار تحرير الفرد بأكمله، مساراً بغيضاً بالنسبة لها.

وتظهر معاداة السامية الحديثة أول ما تظهر، في فرنسا وألمانيا، ثم في روسيا، بعد عام 1870. وخلافاً للرأي السائد في وسط الاشتراكيين اليهود، لا أعتقد بأن بدايتها، أو تطورها فيما بعد، وحتى يومنا الحاضر، يمكن أن يُعزى "للرأسمالية". بل على العكس من ذلك، فإن الرأسماليين الناجحين في كل البلدان، كانوا، برأيي، على العموم، متحررين من معاداة السامية تحرراً ملحوظاً، وإن البلدان التي أنشئت فيها الرأسمالية أول ما أنشئت، وبشكلها الأوسع – مثل إنكلترا وبلجيكا – هي أيضاً البلدان التي كانت فيها معاداة السامية أقل انتشاراً مما كانت عليه في أي مكان آخر. (22)

لقد كانت معاداة السامية الحديثة المبكرة (1880 – 1900)، ردة فعل أناس مرتبكين، يكنون كراهية عميقة للمجتمع الحديث بنواحيه كافة، الحسنة والسيئة، ويؤمنون إيماناً متحمساً، بالنظرية التآمرين للتاريخ. وقد أسند لليهود دور كبش الفداء في انهيار المجتمع القديم (الذي كان الحنين المعادي للسامية يتخيله مجتمعاً مغلقاً ومنظماً، أكثر مما كان في الحقيقة، في أي وقت من الأوقات) وكبش الفداء في كل ما كان مقلقاً في الأزمنة الحديثة. ولكن المعادين للسامية واجهوا منذ البداية، ما كان مشكلة صعبة بالنسبة اليهم: كيف يعرفون كبش الفداء هذا، خصوصاً بالمصطلحات الشعبية؟ ما هو الذي يفترض أن يكون قاسماً مشتركاً بين الموسيقي اليهودي والمصرفي اليهودي والحرفي اليهودي والمتسول اليهودي – خصوصاً بعد أن ذابت الى حد كبير السمات الدينية المشتركة، على الأقل في المظهر الخارجي؟ فكانت "نظرية" العرق اليهودي الرد الحديث لمعاداة السامية، على هذه المشكلة.

وفي المقابل، كانت المعارضة المسيحية القديمة، بل أكثر منها المعارضة الإسلامية، لليهودية الكلاسيكية، متحررة تحرراً ملحوظاً من العنصرية. ولا ريب أن هذا الأمر كان الى حد ما، نتيجة من نتائج الطابع العالمي للمسيحية والإسلام، ولصلتهما الأصلية أيضاً، باليهودية (ولقد عنّف القديس توماس مور تكراراً، امرأة كانت تعترض عندما يقول لها بأن السيدة

مريم العذراء كانت يهودية). والسبب الأهم، بما لا يُقاس في رأيي، كان الدور الاجتماعي لليهود كجزء لا يتجزأ من الطبقات العليا. فقد عومل اليهود في العديد من البلدان كنبلاء محتملين، وكانوا ما أن يتحولون عن ديانتهم، ويعتنقون الديانة السميحية، حتى يصبح بإمكانهم التزاوج على الفور، مع أرفع النبلاء. أما نبلاء قشتالة واراغون القرن الخامس عشر، أو ارستقراطيو بولندا القرن الثامن عشر – حتى نأخذ حالتين كان فيهما التزاوج مع اليهود المتحولين عن دينهم واسع الانتشار – فكان زواجهم من فلاحين إسبان، أو من فلاحي القنانة في بولندا لا يكاد يحتمل، ومهما بلغ المديح الذي يغدقه الانجيل على الفقراء.

إن أسطورة "العرق" اليهودي الحديثة – الطباع المخفية ظاهرياً، ولكن التي يفترض أنها الطباع الغالبة "لليهود"، بمعزل عن التاريخ، والدور الاجتماعي، وأي شيء آخر – هي العلامة المميزة الرسمية والأهم لمعاداة السامية الحديثة. وهذا ما أدركه في الواقع، بعض قادة الكنيسة عندما ظهرت معاداة السامية الحديثة للمرة الأولى، كحركة تتمتع ببعض القوة. فقد عارض بعض القادة الكاثوليك الفرنسيين، على سبيل المثال، العقيدة العنصرية الجديدة التي قدمها أ. دراموند، وهو أول معاد فرنسي شعبي حديث للسامية، ومؤلف الكتاب الشهير "La France Juive" (المصادر في عام 1886)، الذي أحرز انتشاراً واسعاً (23). وقد واجه معادو السامية الألمان الحديثون الأوائل، معارضة مماثلة.

وينبغي أن نشير الى حقيقة أن بعض الجماعات المهمة من المحافظين الأوروبيين، كانوا مستعدين تماماً، على مجاراة معاداة السامية الحديثة واستخدامها لأغراضهم الخاصة، وكان مناهضو السامية مستعدين بالقدر نفسه، لاستغلال المحافظين عندما تسنح الفرصة بذلك، على الرغم من أن أوجه الشبه بين الفريقين كانت ضئيلة.

"ولكن الضحايا الذين عوملوا معاملة قاسية جداً [بواسطة قلم دراموند المذكور أعلاه] لم يكونوا آل روتشيلد بل النبلاء الكبار الذين كانوا يتوددون اليهم. ولم يوفر دراموند العائلة المالكة . . . ولا الأساقفة، ولا حتى البابا نفسه" (24). ومع ذلك، فقد كان العديد من النبلاء الفرنسيين الكبار والأساقفة والمحافظين على العموم، سعداء تماماً باستخدام معاداة دراموند للسامية خلال الأزمة الناجمة عن قضية درايفوس، في محاولة لإسقاط النظام الجمهوري.

وقد عاود هذا النوع من التحالف الانتهازي، الظهور تكراراً، في بلدان أوروبية مختلفة، وحتى هزيمة النازية. فكراهية المحافظين للراديكالية، وأشكال الاشتراكية كافة، أعمت بصيرة الكثيرين منهم عن الطبيعة السياسية لمن يعاشرونهم. فقد كانوا في حالات عديدة، مستعدين استعداداً حرفياً،

للتحالف مع الشيطان، متناسين المثل القائل بأن المرء يحتاج الى ملعقة طويلة لتناول العشاء معه.

ولقد اعتمد تأثير معاداة السامية، وتأثير تحالفها مع الاتجاه المحافظ، على بضعة عوامل:

العامل الأول، إن التقليد الأقدم للمعارضة الدينية المسيحية لليهود، والذي كان موجوداً فى بلدان أوروبية عديدة، (وإن ليس فى كلها بأي شكل من الأشكال)، كان يمكنه أن يرتبط بعجلة معاداة السامية لو كان مدعوماً، أو على الأقل، لو لم يكن يواجه معارضة من رجال الدين. وكانت ردة فعل رجال الدين في كل بلد من البلدان تحددها، الى حد بعيد، ظروف اجتماعية وتاريخية محلية معينة. ففي الكنيسة الكاثوليكية كان الميل الى التحالف الانتهازي مع معاداة السامية قوياً في فرنسا، ولكنه لم يكن قوياً في إيطاليا؛ وكان قوياً في بولندا وسلوفاكيا، ولكنه لم يكن قوياً في بوهيميا. وكانت للكنيسة الأرثوذوكسية ميول معادية للسامية ذائعة الصيت في رومانيا، ولكنها أخذت الخط المعاكس في بلغاريا. أما في وسط الكنائس البروتستانتية فقد كانت الكنيسة الألمانية منقسمة على نفسها انقساماً عميقاً، حول هذا الموضوع، وكانت غيرها من الكنائس (مثل الكنيسة فى لاتفيا واستونيا) تميل نحو معاداة السامية، ولكن كنائس عديدة أخرى (مثل الكنائس الهولندية والسويسرية والاسكندنافية) كانت من أوائل الكنائس التي دانت معاداة السامية.

والعامل الثاني، أن معاداة السامية كانت، والى حد كبير، تعبيراً عمومياً لكراهية الغرباء، ورغبة في مجتمع متجانس "صاف". ولكن اليهودي كان في بلدان أوروبية عديدة، في حوالي العام 1900 (حتى مؤخراً، في الواقع)، "الغريب" الوحيد عملياً. وكان هذا صحيحاً في المانيا بصفة خاصة. فالعنصريون الألمان في أوائل القرن العشرين، كانوا مبدئياً، يكرهون السود ويحتقرونهم، بقدر ما كانوا يكرهون اليهود ويحتقرونهم؛ ولكن لم يكن هناك أناس سود في ألمانيا آنذاك. ومن الأسهل للكراهية بالطبع، أن تركّز على ما هو موجود وليس على ما هو غائب، خصوصاً فى الأوضاع التى كانت سائدة في ذلك الوقت، وعندما لم يكن هناك سفريات وسياحة جماعية، وعندما كان معظم الأوروبيين لا يغادرون بلدانهم في زمن السلم.

أما العامل الثالث، فهو أن النجاحات التي حققها التحالف المبدئي، بين الاتجاه المحافظ ومعاداة السامية كانت تتناسب تناسباً عكسياً مع قوة معارضي هذا التحالف وقدراتهم. وكان المعارضون المنسجمون والفعالون لمعاداة السامية في أوروبا، القوى السياسية، الليبرالية والاشتراكية – وهم تاريخياً، القوى نفسها التي تواصل بطرق مختلفة، التقليد الذي رمزت اليه حرب الاستقلال الهولندية (1568 – 1648)، والثورة الإنكليزية والثورة الفرنسية العظيمة.

وكانت العلامة الفارقة الرئيسية، في القارة الأوروبية، الموقف من الثورة الفرنسية العظيمة – فقد كان المؤيدون لها، ضد معاداة السامية تقريباً؛ وكان الذين يقبلون بها، بأسف، يميلون على الأقل، الى التحالف مع المعادين للسامية، أما هؤلاء الذين كانوا يكرهون هذه الثورة، ويودون لو يستطيعون إلغاء ما أحرزته، فكانوا يشكّلون المحيط الذي تنمو منه معاداة السامية.

وينبغي مع ذلك، التمييز تمييزاً واضح المعالم، بين المحافظين، وحتى الرجعيين، من جهة، وبين العنصريين والمعادين للسامية، من جهة أخرى. فعلى الرغم م نأن العنصرية الحديثة (ومعاداة السامية جزء منها) تسببها أوضاع اجتماعية محددة، إلا أنها عندما تكتسب القوة، تصبح قوة لا يمكن، برأيي، إلا أن نصفها كقوة شيطانية. فهي، على ما أعتقد، بعد توليها السلطة، وطوال فترة وجودها فى السلطة، تستعصى على التحليل وفق أي نظرية اجتماعية مفهومة حالياً، أو وفق أي مجموعة من مجرد ملاحظات اجتماعية – وخصوصاً وفق أي نظرية تتوسل المصالح، طبقية كانت أو رسمية، خاصة بالدولة، أو أي مصالح أخرى، غير "المصالح" النفسانية الصرفة، الخاصة بأي كيان، والتي يمكن تعريفها في الوضع الحالي للمعرفة البشرية. ولكنني لا أعني بذلك، بأن قوى كهذه لا يمكن معرفتها مبدئياً؛ بل على العكس من ذلك، على المرء أن يأمل بأنها ستصبح قابلة للفهم مع نمو المعرفة الإنسانية. ولكن هذه القوى غير مفهومة في الوقت الحاضر، ولا يمكن التكهن بها بطريقة عقلانية – وهذا ما ينطبق على العنصرية كلها وفي المجتمعات كافة (25). وفي الواقع، لم يحصل أن تنبأت أي شخصية سياسية، أو أي مجموعة من أي لون سياسي كانت، وفي أي بلد كان، ولو تنبؤاً غامضاً، بأهوال النازية، ولم يستطع إلا بعض الفنانين والشعراء، من أمثال هاين، أن يلمحوا بعض ما كان يخبئه المستقبل. ولا نعرف كيف استطاعوا ذلك؛ وخصوصاً أن الكثير من أحاسيسهم الداخلية الأخرى لم تكن صائبة.

الحواشي

1- أنظر على سبيل المثال، يرمياهو، 44، وخصوصاً الآيات 15-19. وانظر المعالجة الممتازة لبعض نواحي هذا الموضوع في مؤلف Raphael Patati, “The Hebrew Godes”, Ktav, USA, 1967.

2- النبي عزرا، 25:7 – 26. يهتم الفصلان الأخيران من هذا الكتاب، اهتماماً رئيسياً بجهود عزرا لفصل اليهود "الاتقياء" (البذرة المقدسة) عن "شعب الأرض" (الذين كانوا نفسهم، من أصل يهودي، جزئياً على الأقل) ولفسخ عقود الزواج المختلط.

3- W.F. Albright, “Recent Discoveries in Bible Lands”, Funk and Wagnall, New York, 1955, p. 103.

4- هناك مغزى في حقيقة أن الكتب التاريخية كافة التي وضعها يهود بعد العام 400 ق م بالإضافة الى المجموعة الأدبية، قد رُفضت أيضاً. ولقد كان اليهود حتى القرن التاسع عشر، يجهلون تماماً، قصة المسادا وشخصيات مثل يهوذا المكابي، التي يعتبره العديد (ولا سيما المسيحيون) شخصيات تنتمي الى "جوهر" المسيحية بالذات.

5- سفر الأعمال، 15:18.

6- المصدر نفسه، 25.

7- أنظر الحاشية رقم 6 في الفصل الثاني.

8- أنظر بخصوص مصطلح "اليهودية الكلاسيكية" الحاشية رقم 10 في الفصل الثاني، والحاشية رقم 1 في الفصل الثالث.

9- يشكل عجنون وباشيفس سينغر، الحائزان على جائزة نوبل، أمثلة على ذلك، ولكن يمكن إعطاء أمثلة عديدة أخرى، خصوصاً مثال بياليك، الشاعر القومى العبري. فهو فى قصيدته الشهيرة "والدي"، يصف أباه القديسى وهوي بيع الفودكا للسكارى من الفلاحين الذين يصورهم كحيوانات. وهذه القصيدة التي تحظى بشعبية كبيرة، والتي تُدرّس في المدارس الإسرائيلية، كافة، هي إحدى الأدوات التي يجري بواسطتها، خلق الموقف المعادي للفلاحين.

10- بالنسبة الى السلطة المركزية للبطريركية اليهودية، أنها ثيودوسيوس الثاني الصفقة بسلسلة من القوانين، بلغت ذروتها في العام 429م؛ ولكن ترتيبات محلية عديدة بقيت سارية المفعول.

11- ربما كان المثال المميز الآخر الامبراطورية القوهستانية (حتى العام 225م) ولكن لا يعرف عنها الكفاية. إلا أننا نعرف بأن إنشاء الإمبراطورية الساسانية القومية الإيرانية، أدت الى انهاير فوري للمكانة اليهودية.

12- الحظر يمتد ليشمل أيضاً الزواج من امرأة تحولت الى الديانة اليهودية، لأن الهالاخاه تفترض بأن النساء الأغيار كن مومسات.

13- الزواج المحظور ليس باطلاً عادة، ويتطلب الطلاق. والطلاق هو شكلياً، عمل طوعي من جانب الزوج، ولكن في بعض الظروف، تستطيع محكمة حاخامية أن تجبره على "إرادة" الطلاق (تدفعه بالقوة حتى يقول "إنني أريد").

14- على الرغم من أن الإنجازات اليهودية خلال العصر الذهبي في إسبانيا المسلمة (1002 – 1147) كانت باهرة أكثر، إلا أنها لم تدم. وعلى سبيل المثال، فإن الشعر العبري الرائع في ذلك العصر شعر نسيه اليهود فيما بعد، ولم يستعيدوه إلا في القرنين التاسع عشر والعشرين.

15- استخدم هنري تراستمارا خلال تلك الحرب، الدعاية المناهضة لليهود على الرغم من أن والدته ليونوردي غوزمان، وهي سيدة نبيلة من مقام رفيع، من قشتالة، كانت جزئياً، من أصل يهودي. (فقط في إسبانيا كان النبلاء من مقام رفيع، يتزوجون من يهود)، ومن بعد انتصاره استخدم هو أيضاً اليهود، في أعلى المناصب المالية.

16- حتى القرن الثامن عشر كان يُفترض بأن مكانة عبيد الأرض في بولندا حتى أسوأ من مكانتهم في روسيا. وفي ذلك القرن تفاقمت بعض نواحي القنانة في روسيا، مثل المبيع العلني لعبيد الأرض، الى درجة أسوأ مما كانت عليه فى بولندا، ولكن الحكومة القيصرية احتفظت دائماً ببعض السلطات على الفلاحين المستعبدين، مثل حق تجنيدهم في الجيش الروسي.

17- خلال الفترة السابقة كان اضطهاد اليهود نادراً. وهذا صحيح بالنسبة الى أيام الإمبراطورية الرومانية حتى من بعد ثورات يهودية جدية. وجيبون على حق في امتداحه ليبرالية انطونيوس بيوس (وماركوس اورليوس) تجاه اليهود، بعد وقت قصير جداً من نشوب ثورة باركوخفا الرئيسية، في العام 132 – 135م.

18- معظم المؤرخين العامين في الأزمنة الحديثة، أغفلوا التعليق على هذه الحقيقة التى يمكن التحقق من صحتها بفحص تفاصيل على عملية اضطهاد. والاستثناء الشريف هو حيوتريفور – روبر في "The Rise of Christian Europe", Thames and Hudson, London, 1965, pp. 173-174. وتريفور – روبر هو أيضاً أحد المؤرخين العصريين القلائل جداً، الذين ذكروا الدور اليهودي المسيطر فى تجارة العبيد بين أوروبا المسيحية (والوثنية) والعالم الإسلامي، في أوائل القرون الوسطى (المصدر نفسه، ص 92 – 93). ومن أجل تشجيع هذا الرجس، الذي لا أجد متسعاً هنا لبحثه، سمح بن ميمون لليهود، باسم الديانة

اليهودية، بخطف الأولاد الأغيار وزجّهم في العبودية؛ ولا شك أن رأيه كان معمولاً به، أو أنه عكس الممارسات المعاصرة.

19- يمكن أن نجد الأمثلة في أي كتاب تاريخ عن الحروب الصليبية. أنظر بصفة خاصة، مؤلف S. Runciman, "A History of the crusades", vol. I, book 3, chap. 1 "The German crusade". وقد بدت هزيمة هذا الجيش على أيدي الجيش المجري، "بدت لمعظم المسيحيين كعقاب عادل أنزلته السماء بقتلة اليهود".

20- John Stoye, "Europe Unfolding 1648- 88, Fontana, London, p. 46.

21- هذه السمة الأخيرة ليست مذكورة بالطبع، في التأريخ اليهودي الذي وصلنا. ولقد كانت العقوبة المعهودة للفلاح الثائر أو حتى الفلاح "الوقح"، الموت على الخازوق.

22- يمكن ملاحظة الشيء نفسه في مناطق مختلفة من بلد معين، ففي المانيا على سبيل المثال، كانت بافاريا الزراعية أكثر معاداة للسامية من المناطق الصناعية.

23- كان رفض الكنيسة الاعتراف بأن اليهودي هو دائماً يهودي، سبباً آخر للألم، بالنسبة الى كاثوليكي متباهٍ مثل دراموند. ولقد روى أحد مساعديه الرئيسيين، جول غيران، عن الاشمئزاز الذي شعر به عندما جادله اليسوعي الشهير، الأب دولاك، معترضاً على تهجمه على بعض الذين تحولوا الى اليهودية. D. W. Brogan, "The Development of Modern France", Vol. Harper Torchbooks, New York, 1966, p. 227

24- المصدر نفسه.

25- دعوني أشرح الصفة الشيطانية اللاعقلانية التي يمكن للعنصرية أن تكتسبها أحياناً. بثلاثة أمثلة اخترتها اختياراً عشوائياً. إن قسماً رئيسياً من عملية إبادة يهود أوروبا، نُفّذ في عام 1942 وفي مطلع عام 1943، خلال الهجوم النازي على روسيا، الذي انتهى بهزيمته في ستالينغراد. فخلال الأشهر الثمانية بين حزيران 1942 وشباط 1943، استخدم النازيون في الأرجح، عدداً من عربات السكة الحديد لنقل اليهود الى غُرف الغاز، أكثر من عدد العربات التي استخدموها لنقل الإمدادات الى الجيش الذي كان بحاجة ماسة اليها. وقبل أخذهم الى حتفهم كان معظم هؤلاء اليهود، على الأقل في بولندا، مستخدمين استخداماً فاعلاً، في إنتاج المعدات للجيش الألماني. أما المثال الثاني، الأبعد كثيراً، فيأتي من وصف لصلوات المغرب الصقلية في العام 1282. "فقد صرعوا كل فرنسي صادفوه. تدفقوا على الفنادق التي يتردد عليها الفرنسيون، وعلى ابيوت التي

يســكنوها، ولــم يــوفروا، لا رجــلاً ولا امــرأة ولا طفــلاً.. . اقــتحم المشاغبون الأديرة الدومينيكانيـة والفرنسيسـكانية، وجـروا الرهبـان الأجانب كافة الى الخارج وطلبـوا مـنهم أن يلفظـوا كلمـة سيسـيري (ciciri)، التي لا يستطيع اللسـان الفرنسي أبداً، لفظها بدقة. وقتلـوا كـل مـن فشـل فـي الامتحـان". (S. Runciman, “Theh Sicilian vespers”, Cambrigde University Press, 1958, p. 215). والمثـال الثالث مثال حـديث العهـد فـي صـيف 1980 – بعـد محاولـة الاغتيـال التي قام بها الإرهابيون اليهود، والتي فقد فيها رئيس بلديـة نـابلس بسـام الشـكعة، رجليه الاثنتين، وفقد رئيس بلدية رام الله كريم خلف إحدى قدميه – تجمعت كتلة من النازيين اليهود في حرم جامعة تـل أبيب، وقامت بشوي بعض القطط وقدمت لحمهـا للمـارة علـى أفهـا "شـيش كباب من لحم أرجل رؤساء البلدية العرب". وكل مـن شـاهد ذلك التهتك الذي تقشعر له الأبدان – كما فعلت أنا – عليه أن يعترف بأن بعض الفظائع تستعصي على التفسير في حالة معرفتنا الحالية.

26- إن إحدى المغالطات الأولـى لجابوتينسـكي (مؤسـس الحـزب الـذي كان يقوده مناحم بـيغن آنـذاك) كـان اقتراحـه فـي نحـو العـام 1912، خلق دولتين يهـوديتين اثنتـين، الأولـى فـى فلسـطين والثانيـة فـى أنغولا. ولأن الأولى فقيرة فـى المـوارد الطبيعيـة، فإنهـا سـوف تمـوّل بثروات الثانية.

27- ذهب هرتزل الى روسيا لمقابلة فون بليهفه في آب، 1903، بعد أقل من أربعة أشـهر من مذبحـة كيشـينيف المـدبرة الشـنيعة التـي كـان معروفاً بأن كيشـينيف هو المسؤول عنهـا. وقـد اقتـرح هرتـزل تحالفـاً يقـوم علـى أسـاس رغبتهمـا المشـتركة بـإخراج معظـم اليهـود مـن روسـيا، وتحويل التأييد اليهودي عن الحركة الاشـتراكية، على المدى القصير، ولقد بدأ الوزير القيصري المقابلة الأولى، (في 8 آب)، بإبـداء الملاحظة بأنه يعتبر نفسـه "مؤيداً متقيداً للصهيونية". وعندما مضـى هرتزل يصف أهداف الصهيونية، قاطعه فون بليهفه قائلاً: "إنـك تبشّـر لشخص متحول". عاموس أيلـون، "هرتـزل"، عـام عوفيـد، 1976، ص 415 – 419، بالعبرية.

28- Dr. Joachin Prinz, “Wir Juden” Berlin, 1943, pp. 150 – 151.

29- المصدر نفسه، ص 155 – 154.

30- أنظر على سـبيل المثال، المصدر نفسـه، ص 126، وما هو حتى أسوأ مـن ذلـك. إن حركـة "ليحـومى حيـروت يسـرائيل" المتطرفـة (زمـرة "شـيترن") وبتاريخ يعود الى العام 1941، أدلـت بتعـابير متعاطفـة مـع النازية. وكان الدكتور برينـز مـن "الحمـائم" بالمصـطلحات الصـهيونية.

حتى أنه رعى في السبعينات، حركة "بريرا" اليهودية في الولايات المتحدة، حتى أقنعته غولدا مائير بالعدول عن ذلك.